المقامات ونصوص السّرد العربي عند عبد الفتاح كيليطو
The Maqamat and Texts of the ancient Arabic narrative of Abdel Fattah kilito

حنان حاجي[*1]، الطاهر روابنية [2]

[1]جامعة باجي مختار- عنابة (الجزائر)، hadji.hanenenouna@gmail.com

[2]جامعة باجي مختار- عنابة (الجزائر)، tahar_rouainia@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021/09/11 تاريخ القبول: 2022/05/10 تاريخ النشر: 2022/06/07

ملخص:

شغلت قضية دراسة التراث وإعادة قراءته مكانا هانا في مجال الدراسات النقدية العربية المعاصرة، باعتبار أنّ مجرد الاهتمام بهذه القضية ينم عن الوعي بحقيقة هذا التراث كمصدر غني قابل للدراسة والتحليل ليس بوصفه بحثا في الماضي فحسب بل لكونه متصلا بالوضع الراهن.

نسعى من خلال هذا المقال إلى تسليط الضوء على قراءة الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو كأبرز الباحثين الذين أقرّوا بوجوب العودة لدراسة التراث العربي القديم مناقشة وتحليلا، وسنقف عند أهم دراساته التي ركز فيها عن الأهمية النقدية للتراث السردي القديم وهو كتاب "المقامات-السرد والأنساق الثقافية-" من أجل استخلاص مجموعة من النتائج التي نعتبرها مقدمة لبناء تصور نقدي من الممكن أن يساعدنا في مقاربة القضايا النقدية الراهنة.

كلمات مفتاحية: *المقامات، التراث السردي، الخطاب النقدي، عبد الفتاح كيليطو.*

Abstract:

The issue of studying and rereading heritage has occupied a place in the field of contemporary Arab critical studies, considering that the mere interest in this issue indicates awareness of the reality of this heritage as a rich source for study and analysis, not only as research in the past, but also because it is connected to the current situation.

Through this article, we seek to shed light on the reading of the Moroccan critic Abdel-Fattah Kilito as the most prominent researchers who recognized the necessity of returning to the study of ancient Arab heritage for discussion and analysis, and we will stop at his most important studies in which he focused on the critical importance of the ancient narrative heritage, which is the book "Maqamat - Narrative and Cultural Forms -" "In order to extract a set of conclusions that we consider an introduction to building a critical perception that can help us in approaching current monetary issues.

***Key words**: Maqamat, narrative heritage, critical discourse, Abdel Fattah Kilito.*

[*] المؤلف المراسل: حنان حاجي، الإيميل : **hadji.hanenenouna@gmail.com**

1. مقدمة :

شغلت قضية دراسة التراث وإعادة قراءته مكانًا هاما في مجال الدراسات النقدية العربية المعاصرة، وبالرغم من اختلاف وجهات النظر بين الباحثين وتباين طرق البحث والتحليل بخصوص هذه المسألة، إلاّ أنّ مجرد الاهتمام بهذه القضية ينم عن الوعي بحقيقة هذا التراث ليس بوصفه بحثا في الماضي فحسب بل لكونه متصلا بالوضع الراهن، بالإضافة إلى إعادة إنتاجه وصياغة قيمه الجمالية واختراق فضائه الدلالي.

إنّ ما تقتضيه هذه الدراسة هو ضرورة تقديم تصور تمهيدي حول إشكالية قراءة التراث عموما، والتراث السردي بشكل خاص، باعتبار أنّ التراث السردي في الآونة الأخيرة لم يكن بمنأى عن التحولات التي لحقت بالدراسات النقدية العربية المعاصرة في ظل انفتاحها على الدراسات الغربية، حيث أصبحت هذه المسألة مهمة لكبار النقاد العرب؛ إلاّ أنّ زوايا تناول هذه القضية اختلفت من ناقد لآخر ، ويمكن إرجاع ذلك الاهتمام المتزايد بهذا الموضوع إلى:

أولا: ما ساد في الساحة النقدية العربية من انفتاح على ثقافة الآخر، وما قد أتاحته نظريات النقد الغربية من كيفية إمكانية استثمار بعض القضايا والمفاهيم خاصة منها قضية التراث.

ثانيا: يتمثل في الوعي الكبير بأهمية التراث ورد الاعتبار له من خلال ضرورة مراجعته وإعادة قراءته باعتبار أنّ المسألة لن تبلغ هدفها إلاّ بإعادة النظر في هذا التراث الذي لا يمكن الانقطاع عنه.

وبناءً على ذلك جاءت نظرة النقد العربي للنصوص الأدبية السردية خاصة القديمة منها متعددة ومتنوعة الاتجاهات، ومع تطور آليات مناهج النقد المعاصر شهدت الدراسات السردية في الخطاب النقدي العربي المعاصر نقلة نوعية ذلك بعد أن كان السرد العربي القديم لا يحظى بالعناية اللازمة من قبل الباحثين، من هنا وجب الإقرار بتلك النقلة النوعية للدراسات التي ركزت على الأشكال السردية ومنحتها العناية المنتظرة باعتبارها تشكل مكونًا من مكونات الثقافة العربية، فكانت الدعوة إلى إعادة النظر وفق مقتضيات الواقع ومتطلبات المستقبل من خلال إنتاج معنى جديد له، وتجديد الرؤى حول مساءلته والدعوة إلى السعي الحثيث للمزيد من التفكير في فتح أبواب جديدة للقراءة الأدبية والنقدية، فكما ثبت أنّ النص التراثي لا تحده الحدود سيظل الإبداع في شأنه مفتوحا، فأخذت بعد ذلك إشكالية قراءة التراث أشكالا مختلفة، فانجذبت نحوه المفاهيم والرؤى والأسئلة، فكلما تباعدت المسافة الزمنية بينه وبيننا صار من الأحسن الاقتراب منه أكثر واستعادة العلاقة معه بوصفها استعادة بناء، ليصبح

التراث بذلك مثارا للعديد من القراءات، فالغوص في أعماقه هو الارتياد لمكامن المجهول والمسكوت عنه قرونا من الزمن.

ومنه ليس من السهل أن نرصد جميع التحولات التي طبعت قراءة هذا التراث والوقوف عليها كاملة بل إنّ المهمة تبدو صعبة، وبما أنّنا نريد مواكبة أهم القراءات التي تطرقت لهذا السؤال(سؤال فحص التراث) لتظهر مجموعة من الأبحاث بالرغم من تباين التوجهات؛ إلاّ أنّها صارت تبشر بطريق جديد يلتمس بدائل جديدة لمقاربة التراث السردي العربي القديم حتى نصل إلى تجربة الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو الذي اتجه لتأسيس قراءة جديدة للتراث السردي العربي القديم كانت دعامتها الانفتاح على أفق مغاير للبحث، ومن خلال هذه المعطيات سنحاول في هذا المقال تبيان مدى اقتناع الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو بالتراث وخصوصية تعامله النقدي معه، وذلك انطلاقا من دراساته التي تنم عن ثقافة واسعة بالتراث العربي القديم.

2- مشروع قراءة التراث عند عبد الفتاح كيليطو:

تعد قراءة التراث السردي من أهم المواضيع والقضايا التي شغلت فكر الناقد العربي المعاصر، وتنبع هذه الأهمية من الدور البارز الذي يلعبه هذا التراث في بلورة هوية حاضر ومستقبل الثقافة العربية، والتي هي في جوهرها امتداد للماضي على أصعدة ومستويات مختلفة فكرية وثقافية ودينية...وغيرها امتداد تستدعيه الحاجة المعرفية التي تسعى إلى استشراف الرؤى والآفاق المستقبلية، ونستطيع كذلك أن نرجع أسباب اشتغال النقاد والدارسين بهذا المجال إلى اقتناعهم بأنّ أنواع السرد القديمة هي مصدر غني قابل للدراسة والتحليل على عدّة مستويات، بالإضافة إلى أنّ الاهتمام بالسرد وإعادة الاعتبار له جاء كمحصلة لفعل التلقي للدراسات السردية الغربية التي شهدت تطورًا في مجال تأسيس نظريات للسرد وإخضاعه لإجراءات المقاربة النقدية ومقتضيات الدرس العلمي والمنهجي المؤطر بجهاز مفاهيمي واصطلاحي مواكب في مسايرته للمرجعيات الفكرية في تناولها لمجمل القضايا المتعلقة بعملية الإبداع الأدبي، وعليه فإنّ "حركة المثاقفة النقدية التي عرفها النصف الثاني من القرن العشرين عكست التوجه الواضح للنقد العربي في مسعاه لتمثل الأفكار والنظريات النقدية الجديدة"[1].

إنّ هذا الاهتمام في الخطاب النقدي العربي بالضرورة وليد إرهاصات ذلك التأثر بالنقد الغربي مع المراعاة في الكثير من جوانبه خصوصية المعطيات الفكرية والمرجعيات الثقافية التي تتحكم في طبيعة النص السردي العربي.

إنّ مراعاة ما تفرضه خصوصية النص السردي العربي أثناء عملية مقاربته وتحليله ونقده ضرورة حتمية "ما دامت الوحدة المنهجية للقراءة لا تنفصل عن الوحدة المتكاملة للموضوع المقروء(...)من منظور حقوله المعرفية المتباينة، ومن حيث منتجات المعرفة الجديدة التي تصنعها القراءة"[2]، ومنه أصبح البحث في التراث العربي وقراءته يستقطب الكثير من النقاد العرب لتقديم دراسات جديدة له من ناحية، ومن ناحية أخرى محاولة إثراء الأدب العربي وإحيائه، ومن الأسئلة التي واجهت هؤلاء النقاد في المسألة التراثية السؤال عن كيفية التعامل مع هذا التراث وكيفية قراءته، وهو ما يفرضه الحضور القوي لهذا التراث في الفترة الراهنة، بالإضافة إلى ذلك يعتبر من الخصائص التي تنفرد بها الفاعلية النقدية العربية، فمن هنا بات من الواضح أن يشتغل به عدد كبير من النقاد، غير أنّنا ما نلاحظه هناك تيار من النقاد استطاع أن يبلور منظورا جديدا في الدراسات حول هذا التراث كما استطاع أن يؤسس مسارا جديدا في قراءته والتأمل فيه نظرا لمعناه وقيمته المعرفية والنظرية والمنهجية، ويمكن ضمن هذا التوجه أن نتأمل تجربة الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو كما ذكرنا سابقا باعتباره من أبرز الباحثين في الساحة النقدية العربية المعاصرة الذين اقتنعوا بوجوب العودة إلى دراسة التراث العربي القديم تحليلا ومناقشة، انطلاقا من اعتقاد يرى فيه "أنّنا نعكف على دراسة أنفسنا حين نعكف على النص التراثي الكلاسيكي، والخطاب عن الماضي هو في الآن ذاته خطاب عن الحاضر، وتلك هي الغاية المرجوة والهدف المتوّخى من العودة إلى دراسة التراث ومدارسته، من حيث أنّ مساءلة التراث والماضي الذي احتضنه هي مساءلة للحاضر الذي يحتضننا هو انكباب على دراسة أنفسنا وحاضرنا"[3].

قد يتبادر إلى ذهن كل ناقد مشتغل بالبحث في التراث والكشف عن خباياه بعض الأسئلة وهي: لماذا كل هذا الاهتمام بالنصوص القديمة؟ ما مدى إمكانية التعامل مع النصوص التراثية القديمة عامة والمقامات خاصة من أجل إبراز جماليتها؟

تعد أعمال الناقد عبد الفتاح كيليطو من أبرز الإسهامات التي اكتسحت الساحة النقدية التي كان لها الأثر العميق في شق طريق هام في قراءة النصوص التراثية القديمة، حتى اتسمت تجربته بالقراءة النموذجية التي اتجهت اتجاهًا متفردًا في طرحها، فقد تشكلت من مجموعة من الجهود عملت على مخاتلة ذخائر الأدب العربي القديم مستفيدا في نفس الوقت ممّا وصل إليه الدرس النقدي المعاصر من تقنيات منهجية وآليات إجرائية، فاعتبرت بذلك طفرة نوعية في توجهات النقد العربي المعاصر وفي مسار الناقد بحكم طليعتها وأهمية محتواها، ومن أجل الإحاطة بأبرز الدراسات التي تناولت السرد العربي القديم سنحاول الوقوف عند أهم مؤلف ركز فيه على الأهمية النقدية للتراث السردي وهو كتاب "المقامات –السرد والأنساق

الثقافية-" الذي تناول فيه فن المقامة باعتبارها جنسًا أدبيًا قائمًا بذاته شكل محورًا هامًا من خلال أبحاثه في الآونة الأخيرة، حيث يصرح من خلاله بنيته في نفض الغبار عن المقامة باعتبارها نصًا سرديًا عربيًا، حيث يقول: "ونعتقد أنّه آن الأوان للانكباب على المقامة التي ظلت أمدًا طويلاً معروضة في متحف يعلوها الغبار"[4]، فهو أراد محو غبار النسيان عن هذه المؤلفات ممّا دفعه ذلك إلى تقديم أشكال جديدة من القراءة له، وسنحاول من خلال ذلك استخلاص مجموعة من النتائج التي نعتبرها مقدمة لبناء تصور نقدي من الممكن أن يسعفنا في مقاربة بعض القضايا النقدية الراهنة باعتبار أنّ هذه القضية شغلت كيليطو ومازالت تشغله بوصفه باحثا وناقدا، حيث نجد تعاطيه لهذه القضية أكثر ممّا تعاطاها غيره من النقاد وأعطاها اهتماما كبيرا، وباعتباره من أبرزهم عناية بهذا الموضوع من خلال المواقف والرؤى والجهود النقدية التي شغلته معظم سنين نشاطه النقدي.

يندرج مؤلف "المقامات-السرد والأنساق الثقافية-" ضمن هذا السياق الإشكالي لتأتي أهميته كونه قراءة جديدة لفن المقامات يجتهد الناقد من خلاله في بيان جماليات هذا الفن، بالإضافة إلى أنّ منهجيته كانت واضحة المعالم في المقدمة، والتي رسم فيها خطوط اشتغاله، فانطلق من الحفر في دلالة مصطلح المقامة والسمات التي تتميز بها محاولا بذلك تتبع مجمل المحددات النوعية والتصنيفية لها وإعطائها مكانة تختلف عن باقي أشكال السرد الأخرى.

هكذا وضع كيليطو معالم دراسته للمقامات في مقدمة كتابه، وقد ارتضى لنفسه طريقة مختلفة عن سابقيه من خلال بحثه في البنية السردية التي تميز المقامات باعتبارها نوعًا سرديًا فريدًا في الأدب العربي القديم[5]، بالإضافة إلى استناد الدراسة على مفهوم إجرائي مركزي هو الأنساق الثقافية، ووفق هذا الطرح تحديدًا تظهر خصوصية المقاربة النقدية عند عبد الفتاح كيليطو التي تفتح مجال الاهتمام بجميع السياقات الثقافية المحيطة بالنص، والذي "لا يمكن أن نقرأه في عزلة عن غيره من النصوص، فالتراث النقدي وحدة سياقية واحدة داخل وحدة سياقية أوسع هي التراث كله"[6].

ذهب كيليطو يدقق في مفهوم المقامة غوصًا في الحفر المعرفي الذي نهجه ميشال فوكو في مؤلفاته الكثيرة ولاسيما "أركيولوجيا المعرفة" و "نظام الخطاب"، فبحث عن العناصر المكونة للمفهوم متتبعا الهمذاني الذي يعد خالق نوع المقامات وسمى ذلك الحفر المعرفي "عادة منهجية يتم الخضوع لها دون انشغال بتدقيق حدودها ممّا يستدعي دراسة التأثيرات التفصيلية التي تتضح سرابيتها وإعلان أصالة لا يمكن البرهنة عليها"[7] ، لذلك ارتكزت دراسة كيليطو للمقامات على خمسة مؤلفين للمقامات وهم: الهمذاني، ابن شرف القيرواني، ابن بطلان، ابن ناقيا، الحريري؛ لأنّ "خمستهم كتبوا حكايات وامتثلوا للأنساق الثقافية ذاتها من

الهمذاني إلى الحريري، انطباع بالاستمرارية لا الانقطاع، استمرارية تعبّر عن ذاتها بالرغبة في المحاكاة والاهتمام بالأمانة للأصل"[8].

يعترف كيليطو أنّ المقامة حكاية، لكن المصاعب تبدأ حين يتعلق الأمر بموقعها إزاء الأنماط الأخرى للحكاية التي عرفتها الثقافة العربية، وحين يتعلق الأمر بدراسة العناصر السردية المكونة لها، وعلّة تتالي هذه العناصر تبعًا لنظام ثابت أو يكاد يكون ثابتا، وحين يتعلق الأمر بمساءلة الدلالة لا الأدبية فحسب، بل كذلك الدلالة السيسيولوجية لهذا النظام، وحين يتعلق الأمر إجمالا بالكشف عن الأنساق الثقافية التي تقع في الأساس منها، والتي تمنحها مظهرها الذي ظهرت به دون غيره من المظاهر[9].

وانسجاما مع منهجيته المعرفية عرّف كيليطو النسق الثقافي بأنّه: "مواضعة اجتماعية، دينية، أخلاقية، استيتيقية(...) نفرضها في لحظة معينة من تطورها الوضعية الاجتماعية والتي يقبلها ضمنيا المؤلف وجمهوره"[10]، بمعنى أنّه عبارة عن نظام أو قاعدة سواء كانت اجتماعية أو أخلاقية أو دينية تتبناها أو تقرها الجماعة في فترة معينة عبر مراحل تطورها، مما ينجر عنه جعل النصوص أو الإنجازات الفردية خاضعة لها أو ما يعرف بالنص الثقافي على حد تعبير كيليطو، ولذلك لا يمكن اعتبار أي نص مغلق أو جاء من كتلة واحدة بل هو منفتح على نصوص أخرى.

إنّ النسق الثقافي الذي اعتمده كيليطو جعله يلّح على ضرورة الانفتاح على دراسة تخصص مدونة ما على ما يحيط بها، وعدم الانغلاق على النصوص بل لابد من البحث فيما يحيط بها لمقاربة أقرب إلى الموضوعية نسبيا على اعتبار أنّ النسق الثقافي مشترك في العصر، وإن اختلفت الإنتاجات الأدبية أو الإبداعية، وانطلاقا من ذلك يعمد إلى محاورة مجموعة من النصوص المختلفة التاريخية والجغرافية والاجتماعية لما في ذلك من قدرة كامنة في تلك النصوص تحرّك النسق الذي شكّل النصوص المقامية هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الموازنة بين نصوص المقامات وتلك النصوص المعاصرة لها سواء ما سميت بمقامات أو نصوص أنواع أخرى هو في حقيقة الأمر بحث في الأصول المشتركة لتلك النتاجات أي بحث في الأنساق التي أوجدت أو أثرت في تشكيل تلك النصوص مجتمعة[11].

لقد استخدم الباحث مفهوم النسق الثقافي كمفتاح إجرائي لمقاربة نصوص المقامات، حيث تم هذا الاستخدام بقصد تفسير تلك النصوص وتأويلها والبحث عن المعطيات المشكلة لها داخل السياق الثقافي لمؤلفيها، بالإضافة إلى الحفر عميقا في بنيتها الداخلية وما يحيط بها من نصوص، وتتبع الأنساق العاملة على تشكيلها.

3- المقامة: شكل سردي متميز

عمل كيليطو على توجيه مسار مشروعه النقدي نحو الاشتغال لقراءة التراث السردي العربي مركزا على أهم أشكاله وهي **"المقامة"** من خلال تتبع نسيج بنيتها السردية، والوقوف على خصوصية هذه البنية، حيث عمد إلى وضعها بالموازاة مع نصوص سردية قريبة منها، فالعملية التي اعتمدها في فهم النص وتأويله تبنى على رؤية واعية للسياق الثقافي الذي يحيل إليه هذا النص، إذ أنّ علاقة النص بالثقافة وفق هذه النظرة جعلت منه يتوافق مع ما ذهب إليه يوري لوتمان في تركيزه على الخاصية الثقافية للنص، وذلك من خلال اعتبار أنّ "الأدب هو مجموعة النصوص المعترف بشرعيتها داخل ثقافة محددة، ومن هنا فإنّها تشكل جزءًا من نظام الثقافة أي أنّ النص بهذه الصفة عليه أن يظهر جزئيا أو كليا التمفصلات الكبرى والآليات الداخلية للثقافة"[12].

وللوقوف على هذه التمفصلات من الواجب إقامة موازنة بين المقامة ونصوص أخرى قد تكون مشاركة لها في بعض الخصوصيات لنتمكن من الوقوف على نوعية النص وتميزه، والوقوف على السمات الذاتية للمقامة إنّها قراءة مستوعبة لنصوص سردية من خلال منهجية تستهدف إكساب البحث أوسع أفق.

حاول كيليطو التطرق إلى خصائص ومظاهر مقامات الهمذاني من خلال بعض الأعمال التراثية، فوقع اختياره على: يتيمة الدّهر للثعالبي، وزهر الآداب للحصري، ورسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، فقد أراد كيليطو أن يتجاوز الدراسات السابقة حول مظاهر المقامات من خلال (الثعالبي والحصري)، حيث ركز الأول على مظاهر تميز جزء من الثقافة الكلاسيكية متمثلا في الأسلوب الرفيع، وموضوعة الكدية، ونسبة الخطاب، ومزج الجد بالهزل.

أمّا الحصري فقد كان تعرضه للمقامات ذو طابع انتقائي قائم على الموضوع، فقد درسها في إطار نصوص شعرية أو نثرية تعالج الموضوع نفسه بغض النظر عن مؤلفها وعصورها حاول الناقد البحث عن مظهر واحد يميز المقامات بعينها دون غيرها من الأنواع الأدبية، وهذا المظهر يتمثل في ثبات الشكل السردي، حيث تكفي قراءة المقامات الأولى لإدراك أنّ الأفعال السردية تتبع في كل واحدة منها تسلسلا ثابتا، ويوجه قراءة المقامات الأخرى توقع يخيب أحيانا بعودة هذا التسلسل[13].

يكاد يكون كيليطو متفردا في التفاته لسمة تميز المقامات عن النصوص القريبة منها من حيث الموضوع والمتمثلة في تسلسل الأفعال السردية، فالحال هنا يجبرنا كما يقول كيليطو على "الاعتراف بأنّ من بين خصائص المقامة تكون البنية السردية هي الأشد استعصاء على

الترابطات، وأنّها في النهاية هي ما يشكل الخصيصة الذاتية للمقامة"[14] بل إنّها تعتبر من أهم المظاهر التي تميزها.

أمّا عمل ابن شهيد الأندلسي فاشتغل عليه كيليطو من زاوية اشتراكه مع المقامات في عدّة أمور تتمثل في وجود القرين أي الشيطان الملهم الذي يساعد على نظم القصيدة، فقد حاول كيليطو من خلال هذه المؤلفات الثلاث استجلاء السمات التي تتميز بها المقامات، وحتى يتحقق هدفه حول المظهر الرابع الذي لم يلتفت إليه الحصري أو الثعالبي كان من المهم اختيار طريقة مقارنة مختلفة أو القيام بتحليل النصوص القريبة من المقامة. وهو ما سيجعله ينتبه للسمات التي تميزها عن ذلك الشكل؛ ويمكنه آنئذ أن يحيط بصورة غير مباشرة بصفات المقامة[15]، وقد رأى كيليطو أنّ مقاربة النصوص القريبة من المقامة تستوجب أن "لا تكون المقاربة مجانية يلزم العثور على نصوص لا ترتبط بالمقامة في تتابع لحظاته السردية فحسب بل إضافة إلى ذلك تكون ذات مواضيع قريبة من تلك المسيطرة في مجموعة الهمذاني"[16]، وحتى يتحقق الهدف من هذه المقاربة "عمد كيليطو إلى قراءة بعض النصوص القريبة في تشكلها من نص المقامة بل تنسب في أحايين كثيرة إلى جنس المقامة، وهذه النصوص هي(أحاديث ابن شرف القيرواني) و(دعوة الأطباء لابن بطلان) و(مقامات ابن ناقيا)"[17] من خلال الموازنة بينها وبين مقامات الهمذاني معتمدا على التحليل والتأويل نظرًا للسياق الثقافي الذي جمعهم.

وتأكيدا على هذا المعنى يذهب الناقد عبد الله إبراهيم إلى أنّ مقاربة بعض النصوص التراثية قد جعلته يصل إلى نتيجة مفادها بأنّ النصوص تتراسل مع سياقاتها، وأنّ تفاعلها مع سياقات ثقافية متغيرة يزيدها ثراء، فهو لا يسعى إلى تقييد الدلالات النصية، وإنّما يريد منح تلك النصوص المعاني المتجددة والمواكبة للسياقات المتغيرة عند أخذها لأشكال مختلفة في الزمان والمكان[18].

يرى عبد الفتاح كيليطو في قراءته لأحاديث ابن شرف القيرواني أنّها بعيدة كل البعد عن المقامات، فقد حاول بشكل واضح إظهار العلاقة التي تجمع بين أحاديث ابن شرف ومقامات الهمذاني، ليجد أنّ "العلاقة بين الأحاديث والمقامات ليست بالغة الوضوح، وما كان أحد ليلاحظها لو لم يذكرها ابن شرف القيرواني في مقدمته مشيرا في الوقت ذاته إلى السبيل الذي ينبغي أن ينتهجه تأويل كتابه. يدور الحديثان أساسًا الأول حول الجانب الأسلوبي لكبار الشعراء، والآخر حول النقد الشعري. رغم أنّ الاهتمامات النقدية حاضرة في العديد من المقامات، فهي بعيدة عن أن تشكِّل المظهر الذي يلفت النظر للوهلة الأولى في مؤلف الهمذاني"[19]، وهكذا استثمر كيليطو قراءته في التأكيد على أنّ أحاديث ابن شرف القيرواني لا تشبه مقامات الهمذاني التي تحمل بين طياتها الطابع الهزلي، لقد قدم الناقد أدلة على ذلك

لتبرير موقفه ليتبين أنّ عمل ابن شرف القيرواني تابع لمؤلفات النقد الأدبي أكثر منه استمرارا للمقامات، فخلافا للهمذاني "فإنّ ما يحلم به ابن شرف هو خطاب مُطابقٌ وشفّافٌ، دون أي خداع، أي يُعَيِّنُ بدقة موقف قائله؛ أي خطابا مقدودا لائقا ومناسبا لا يجعل لابسه متنكرا، بل على العكس يكشف عن حدوده"[20]، كما أنّ ربط ابن شرف لأحاديثه بالمقامات وكذلك بكتاب كليلة ودمنة يجعل كيليطو يبحث في العلاقة بين المقامة والخرافة وأحاديث ابن شرف على مستوى الشكل نظرًا للاختلاف بينهما على مستوى المضمون، ممّا يحتم إلحاقها بالمؤلفات النقدية؛ إلاّ أنّه مع ذلك عمل على قراءتها من واقع يفترض أنّها عبارة عن استمرار لفن المقامات في جانب من جوانبها لتأكيد فرضيته الأولى، حيث تشترك كل من المقامات والحديثين في اقترابهما من مجال النقد الأدبي، لكن الخرافة تختلف عن ذلك، وقد توصل من خلال ذلك إلى أنّ كلا من المقامات والخرافة والحديثين تلتقي في نسبة الخطاب إلى شخصيات خيالية، فمؤلف المقامات يجعل شخصياته التي يخترعها تتكلم، وهذا ما يجعل ابن شرف يقربها من أحاديثه، بعد ذلك ذهب كيليطو لتحليل مضمون الحديثين للكشف عن الاختلاف القائم بينهما وبين المقامات، فعلى مستوى المضمون يختلفان من حيث الطابع الهزلي الذي يميز شخصيتي المقامات (عيسى بن هشام و أبو الفتح الإسكندري) عن شخصية الحديثين(أبو الريان)، وإن كان هناك اتفاق بينهما فهو شكلي أي نسبة الخطاب لشخصيات خيالية، فمن وجهة نظر كيليطو ما ينشده ابن شرف هو "منع مزج الأنواع وخلط الأدوار(...) وهذا يعني أنّ ابن شرف يرغب في أن يمحو في تأليف الهمذاني كل الجانب الهزلي والانتهاكي باختصار كل ما ليس جِدًّا"[21].

ومنه حكم عليها كيليطو بعدم إمكانية نسبتها الصريحة إلى جنس المقامة باعتبار أنّ المقامة ترسم عالمها الخاص والذي لا يتوفر في الأحاديث إنّه عالم متراتب "لكن الممثلين فيه يتحددون بانعدام الثبات، وحيث الكينونة والظهور لا يتطابقان، وحيث التناقض هو القاعدة، وحيث نفس الممثل يخترق بحزم كل اللغات"[22].

أمّا دعوة الأطباء (لابن بطلان) التي تشكل ثاني مصنف اعتمده كيليطو في قراءته، من أجل تحديد ما تتميز به المقامة عن سائر أنماط السرد المتزامن معها، والمحكوم وفق النسق الثقافي الذي تخضع له نصوص المقامات؛ لكن الهدف إلى ذلك عند الناقد ليس تلمسًا "لصدى المقامات في دعوة الأطباء بقدر ما نهدف إلى استجلاء خصائص خطاب يعرف تجسيدات متعددة والذي لا يحتاج ممارسو ذلك الخطاب فيما وراء المؤلفات الفردية(...) إلى الاتفاق فيما بينهم كي ينضووا تحت نفس الشعار"[23].

لقد اختلف الشأن في تحديد مصنف دعوة الأطباء الذي يمثل تجسيدات متنوعة باعتبار أن هذا النوع لا يخلو من نصوص مثل المقامات، كما أنّها تعالج الهزل، ممّا جعل البعض من النقاد اعتبارها رسالة كابن أبي أصبيعة، ومنهم من اعتبرها مقامة كما هو الحال عند ابن القفطي، ويرجع هذا التضارب إلى كون "النص يبدو أحيانا مستعصيا على الانتساب النوعي، وينعكس ذلك على التسمية التي تصبح متعثرة أو متعددة[24].

إنّ التسمية الأولى التي ارتآها ابن أبي أصبيعة هي بعيدة عن مجال البحث المتعلق بالمقامة، لذا استبعدها كيليطو كمجال يخضع له موضوع الدراسة، فدعوة الأطباء ليست رسالة، حيث نرى أنّ الوضع لكلمة رسالة هنا قد لا يراد بها جنس الرسالة تحديدًا؛ لكن التسمية الثانية التي أطلقها ابن القفطي هي التي استأثرت اهتمام الناقد أي تسمية المقامة بوصفها بؤرة بحثه، فذهب يقيم موازنة بين دعوة الأطباء والمقامة من خلال تتبع البنيات السردية التي تتأسس عليها المقامة الهمذانية ومقارنتها بخصوصية خطاب رسالة ابن بطلان، هذه الأخيرة التي تشترك مع المقامة في بنية إسناد الخطاب تخضع إلى إعطاء أهمية قصوى في اعتماد علاقة المتكلم بالخطاب، والتي لا تخرج عن حصرها في أنماط خطابية أربعة*، وحصر شخصيات المقامة وفق هذه الأنماط، فلا يخرج عن كونه إمّا خطابًا شخصيا أو خطابًا مرويا، وهي بالضرورة خطاب مروي، والرواية في الخطاب قد تكون بنسبة أو بغير نسبة، ففي الأولى هي الصحيحة، وفي الثانية زائفة(خيالية)، ومجمل تفصيل هذه الأنماط يجعل من المقامة خطابًا مرويًا بنسبة خيالية؛ لأنّ "أبو الفتح وعيسى اسمان غير معروفين خارج المقامات ليس لهما حياة مستقلة عن النص الذي يضمهما(..)، فأشخاص الهمذاني من ورق أي أنّهم خياليون"[25].

تتضح مرجعية كيليطو في دراسة دعوة الأطباء من خلال استثماره لبعض مقولات الشكلانيين الروس في معالجة التراث، فأثناء دراسته لابن بطلان يكشف عن طريقته غير المعتادة في تناول المواضيع، فيتجلى خرقه للمألوف، حيث يرى أنّ الطريقة التي انتهجها ابن بطلان قريبة من مفهوم الإغراب لدى الشكلانيين الروس، فمفهوم الإغراب يتعلق باستعمال طريقة غير مألوفة لمعالجة قضية ما[26].

هكذا إذن تقع دعوة الأطباء خارج نطاق البنية السردية للمقامة، فليس وصف ابن القفطي لها بشفيع موضوعي يرقى بها إلى مستوى البعد الأجنّاسي لفن المقامات، بل إنّها كما يؤكد كيليطو تفتقد إلى بعض عناصر البنية السردية للمقامة.

نذهب بعد ذلك إلى المصنف الثالث الذي اعتمدنا عليه كمدونة في مدار البحث حول المقامة وعلاقتها بنصوص قريبة منها، حيث يقوم كيليطو بدراسة (مقامات ابن ناقيا) مستندًا في ذلك على مقدمة المؤلف، حيث يستعمل ابن ناقيا كلمة حكاية للدلالة على المقامة بقوله إنّها

"حكايات أحسنا العبارة فيها، وهذبنا ألفاظها ومعانيها(...) وقد سلك بعض المتقدمين هذا المذهب في مثلها(...) وإنّما وسمتها باسم مستعار على عادة الشعراء في تشبيب القاصد، والحكماء في وضع الحكمة على ألسنة البهائم وليس ذلك بمحظور"[27].

وانطلاقا من هذا يشرع كيليطو في التحليل، فيرى أنّ لفظة حكاية ومقامة مترادفان، فالمقامة تعني كل نص يقلد التشكيل الخاص بمقامات الهمذاني أو احتواءه على إسناد الخطاب لشخصيات تخييلية غير أنّ ابن ناقيا يستعمل كلمة "حكى" للدلالة على أقوال شخصيات تكون مخترعة تماما، ممّا يجعل كيليطو يرى في الأمر مناقضة على اعتبار "أنّ الكلام المنقول هو في الواقع كلام مسند، لكن الإسناد يفترض أن يتوارى المؤلف إلى أقصى حد ممكن ليفسح المجال للشخصيات"[28].

يكمن التناقض هنا حسب كيليطو في دور الراوي والشخصيات، حيث يجعل ابن ناقيا المؤلف متحكما في الشخصية، أي أنّه مخترع الكلام على خلاف إسناد الخطاب الذي يكون فيه القول مطابقا لنمط الشخصية الممثلة، ليصل إلى أنّ كلمة حكاية عند ابن ناقيا تعني محاكاة، ويستند في هذا الصدد إلى حجج مقنعة، حيث يلج إلى أغوار التراث الغربي من أجل تبرير موقفه من خلال ملاحظات أفلاطون عن المحاكاة وانتقاده لهوميروس الذي يسند خطابات إلى شخصيات؛ لكنّه في الإلياذة يجعل الشاعر هو المتكلم وليس الشخصية، كما أنّ هذه الأخيرة تعبر عن موقفها ومصالحها[29].

يشهر كيليطو أدواته في مقاربة هذا العمل والمتمثلة في الشرح والتحليل والاستشهاد، فيرى أنّ ابن ناقيا لا يستعمل المحاكاة بمعناها الدقيق؛ لأنّها تفترض وجودًا سابقًا لما سيجري نقله، فوجود الحكاية هنا يتحقق أثناء صياغة المؤلف للخطاب بحيث يلاءم الشخصية التي يسنده إليها.

- **خاتمة:**

نستطيع القول من خلال ما سبق أنّ كيليطو لم يكتف بقراءة نص المقامات في ضوء الموازنة بينها وبين نصوص أخرى، والبحث عن روابط يكشف بها عن أنساق مضمرة، بل استطاع مساءلة هذه النصوص المتنوعة محيلا على مؤلفها، وساعيا وراء ذلك إلى فهم اختياراتهم المنهجية واستنطاق البنيات الفكرية والثقافية التي تحكم نصوصهم والأنساق التي تضمرها.

لقد ولج كيليطو إلى أعماق نص المقامة محاولا فك شفراته عن طريق التأويل، ممّا جعله يقف عند جمالية الأسلوب ويكشف خصوصيته التي تسمو به ليتمكن من تميز هذا الفن وإعطائه موقعه الخاص، الأمر الذي دفعه إلى القول "إنّ المقامات التي تستوعب كل

الأنواع المعروفة كان لابد لها أن ترى النور"[30]، ولعلّه يقصد بالنور هنا إضاءتها بنصوص أخرى من خلال تفكيكها وتقليبها على عدّة وجوه.

إنّ قراءة كيليطو للتراث العربي ترينا نظرته الثاقبة لأهميته، فالتراث عنده ليس عبارة عن نصوص قديمة ميتة وجامدة، بل هي كنوز تنبض بالحياة تحتاج إلى من ينقب فيها ويبحث عمّا تخبئه من جواهر، لذا نستطيع القول أنّ من خلال دراساته ومقالاته النقدية التي لا تخلو من الشغف الواضح بهذا التراث استطاع أن يشق طريقه، ويقدم نظرة جدية لقراءته التي عملت على تقريب المسافة بين القارئ العربي وتراثه السردي، حيث ساهمت هذه النظرة على تقديم رؤية جديدة من شأنها أن تكون مهادا لتطوير نظرية سردية عربية.

الهوامش:

[1]- عمر عيلان: النقد العربي الجديد- مقاربة في نقد النقد -، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص17.

[2]- جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1992، ص59.

[3]- حياة أم السعد: العين الثالثة - تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي-، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018، ص103.

[4]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993، ص8 .

[5]- نادر كاظم: المقامات والتلقي – بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث- ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2003، ص393.

[6]- جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، مرجع سابق، ص12.

[7]- عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دط، 2000، ص327.

[8]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، مصدر سابق، ص7 .

[9]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، مصدر نفسه، ص8/7 .

[10]- المصدر نفسه: ص10.

[11]- حياة أم السعد: العين الثالثة، مرجع سابق، ص108.

[12]- حسن خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص36.

[13]- راوية برجم: آليات تأويل السرد العربي القديم عند عبد الفتاح كيليطو، مجلو أبوليوس، جامعة سوق أهراس الجزائر، العدد8، جانفي 2018، ص159.

[14]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات-السرد والأنساق الثقافية-، مصدر سابق، ص97.

15_ م ن، ص97.

16_ من، ص98.

17_ مجموعة من المؤلفين: فلسفة السرد، دار الأمان، الرباط المغرب، 2014، ص229.

18_ عبد الله إبراهيم: التلقي والسياقات الثقافية، دار الكتاب الجديدة المتحدة للنشر، ط2، 2000، ص89.

[19]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، م س، ص105.

[20]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، م ن، ص118.

21_ عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، م ن، ص118.

[23]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية- ،م ن، ص121 .

[24]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية-، م ن، ص127 .

*وأنماط الخطاب التي حصرها كيليطو هي: 1/المتكلم يتحدث باسمه. 2/ المتكلم يروي لغيره. 3/المتكلم ينسب لنفسه خطابا. 4/المتكلم ينسب لغيره خطابا يكون هو منشئه. ينظر: عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة –دراسات بنيوية في الأدب العربي- ، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1982 ، ص25 .

[25]- المصدر نفسه: ص28 .

[26]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية- ،م ن، ص131.

[27]- راوية برجم: آليات تأويل السرد العربي القديم عند عبد الفتاح كيليطو، م س، ص162 .

[28]- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية- ،م س، ص132 .

[29]- ن م، نفس الصفحة.

[30]- ن م، ص73 .

- **قائمة المصادر والمراجع:**

- جابر عصفور: قراءة التراث النقدي، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1992.
- حسن خمري: نظرية النص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007.
- حياة أم السعد: العين الثالثة – تطبيقات في النقد الثقافي وما بعد الكولونيالي–، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2018.
- راوية برجم: آليات تأويل السرد العربي القديم عند عبد الفتاح كيليطو، مجلو أبوليوس،جامعة سوق أهراس الجزائر، العدد8، جانفي 2018.
- عبد الفتاح كيليطو: الأدب والغرابة –دراسات بنيوية في الأدب العربي–، دار الطليعة للنشر، بيروت، ط1، 1982.

- عبد الفتاح كيليطو: المقامات –السرد والأنساق الثقافية–، ترجمة عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1993.
- عبد الله إبراهيم: التلقي والسياقات الثقافية، دار الكتاب الجديدة المتحدة للنشر، ط2، 2000.
- عبد الله أبو هيف: النقد الأدبي العربي الجديد في القصة والرواية والسرد، منشورات اتحاد كتاب العرب، دط، 2000.
- عمر عيلان: النقد العربي الجديد– مقاربة في نقد النقد –، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
- نادر كاظم: المقامات والتلقي – بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث–، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت لبنان، ط1، 2003.